الأرثوذكس والترجمات البروتستانتيّة للكتاب المقدّس

د. نقولا أبومراد

في مقدّمة تصحيحه لكتابَي الأناجيل والرسائل الطقسيَين اللذَين يُستعملان في الكنيسة الأرثوذكسية الأنطاكية لتحديد النصوص التي تُقرأ على مدار السنة من الأناجيل والرسائل وإثباتها، يقول المصحّح وهبة الله صرّوف، الذي أنهى عمله في أورشليم في مطلع سنة ١٩٠٣، ما يأتي: «... وقد استعنت في العمل [أي في تصحيح الكتابَين المذكورَين] بالنسختَين الحديثتَين الشهيرتَين المعروفة إحداهما بـ «الأميركانية» [وهو طبعًا يقصد الترجمة العربية التي أنجزها الدكتور كورنيليوس فان دَايك]، والأخرى بـ «اليسوعية» [والمقوصود على الأرجح الترجمة الدومينيكانية] المطبوعتَين في مدينة بيروت، الأولى منهما سنة ١٨٦٥، والثانية سنة ١٨٧٧، فجعلت أقابل كلاًّ منهما، وكذلك النسخة الأصلية الشويرية على المتن اليوناني... وما كان أكثر انطباقًا من عبارات هذه النسخ الثلاث على الأصل اليوناني أثبته مختارًا فصاحة العبارة ووضوح المعنى». يوحي هذا الكلام بأنّ صرّوف، الذي يدعو نفسه بأمانة علميّة مصحّحًا للكتابَين لا مترجمًا لهما، على خلاف ما قد يتوقّع المرء، لم يتردّد البتّة في استعمال ترجمتَين للكتاب المقدّس، قامت بإحداهما جهة إنجيلية، وبالأخرى جهة كاثوليكية، للقيام بعمله.

اللافت في مقدّمة صرّوف، أنّه لا يذكر البتّة، كما لا يستشفّ القارئ من كلامه، وجوبَ إيجاد ترجمة أرثوذكسية للكتاب، متميّزة في أرثوذكسيتها، كما الترجمتان الإنجيلية والكاثوليكية كلاًّ في تقليدها، على غرار ما نسمع اليوم من دعوة إلى القيام بذلك، بل يقول صراحةً إنّه يقوم بعمله هذا، ولو على كتابَين

طقسيَين أرثوذكسيَين، «اقتضاءً لرغبة أهل هذا العصر من المسيحيين الذين قد انتشرت في ما بينهم الآداب ومعرفة اللغة العربية الفصحى». فلو أراد صرّوف، ومعه مَن انتدبه للقيام بعمله، تحدّي الترجمتَين الحديثتَين الشهيرتَين بترجمة أرثوذكسية، لكان أبقى على النسخة الشويرية، ولو مصحّحة، وأتمّها بترجمة نواقصها. غير أنّ هذا بالضبط ما لم يحصل. فأتى عمل صرّوف على الأناجيل والرسائل عملاً علميًّا نقديًّا بالدرجة الأولى، ذلك أنّ النسخة الشويرية التي صحّحت مرارًا قبل ذلك، وكان آخر تصحيح لها قد تمّ سنة ١٨٦٥، أي في السنة ذاتها التي ظهرت فيها ترجمة فان دَايْك، كانت لا تزال تعاني، ولو في بعض أجزائها، «من ركاكة العبارة، وضعف التركيب، وعدم انطباق الألفاظ على مواضعها». أهمّية هذا، إذا صحّ، وقناعتي أنّه صحيح، أنّ عمل الأرثوذكس على الكتاب المقدّس لم يأتِ ردّة فعلٍ «طائفية»، «مذهبية»، على ما سبقه من عمل عند الإنجيليّين والكاثوليك، كما كانت الترجمة الكاثوليكية جوابًا كاثوليكيًا على الترجمة البروتستانتية، ونستنتج هذا، ممّا عرفتْه الحركية الإرسالية الإنجيلية والكاثوليكية من تنافس وتسابق، بل أتى تجاوبًا مع تطوّرٍ وتقدّمٍ فكريَّين ولغويَّين كانَا، على الأرجح، نتيجةً لعمل الإرساليات، خصوصًا أنّنا مع وهبة الله صرّوف بُعَيدَ تأسيس الجامعتَين الأميركية واليسوعية، وفي أوج عمل المدارس الروسيّة. وليس مَن ينكر أثر هذه المؤسّسات التربويّ على النموّ الفكريّ، خصوصًا عند الأرثوذكس، لا الخاصّة فقط بل العامّة أيضًا، ممّن توافدوا لطلب العلم وشكّلوا النسبة الأعلى بامتياز من طلاب الجامعة الأميركية والمدارس المسكوبية.

بهذا يكون الأرثوذكس وجدوا في الترجمات الكاملة للكتاب المقدّس، وأهمّها في رأيي ترجمة فان دَايْك، تحدّيًا لهم، وحافزًا تجاوبوا معه، بتواضع علميّ، لوضع نفسهم في المسار الذي كانت الأمور الدينية والثقافية والعلمية، وكذلك السياسيّة، قد أخذته في ذلك الوقت، بعد ركود أو شبه ركود خبروه في أزمنة العثمانيين. يقول صرّوف في مقدّمته عن راعي العمل، البطريرك

الأورشليمي، داميانوس الأوّل، أنّه انتدبه لعمله هذا «لوفور غيرته ومزيد عنايته برعيته الناطقة، بل بسائر المسيحيين الأرثوذكسيين ولا سيّما الناطقين منهم بالضاد، واهتمامه بكلّ ما يؤول إلى خيرهم ومنفعتهم الروحية والأدبية والمادية». حتى ولو كان كلامه هذا في سبيل مجاملة راعي العمل، إلاّ أنّه لا شكّ عندي أنّ همّ المنفعة الروحية والأدبية والمادية للأرثوذكس كان حاضرًا، بالأقلّ، عند صرّوف نفسه وأمثاله من أرثوذكس في ذلك العصر.

أكثر ما يلفتنا في مقدّمة صرّوف، ممّا يدعم تصوّرنا هذا، أمر تنبغي الإشارة إليه في هذه المرحلة، وهو قوله إنّه، أثناء تصحيحه لكتابَي الأناجيل والرسائل، استعان ببعض الشرّاح القدماء والحديثين، واستشار «أشهر علماء اللاهوت في هذه المدينة [والمقصود في بيروت]». ما يوحي بأنّ بعض من استشارهم من لاهوتيين في بيروت ما كانوا، بالضرورة، أرثوذكسيين، قوله في موضح لاحق، «وكان بودّي مخابرة علماء الكنيسة الأرثوذكسية في فلسطين وسوريا ومصر من إكليريكيين وعلمانيين، ولا سيّما المتضلّعين منهم بالعلوم الدينية ومعرفة اللغتين اليونانية والعربية، واستشارتهم في مفردات ما جرى في هذين الكتابَين الشريفَين، كتاب الرسائل وكتاب الأناجيل، من التصحيح فحالت بعض الظروف والموانع دون بغيتي هذه». لن نلجأ إلى حجّة من الصمت ونجزم في هوية مَن استشارهم من علماء في بيروت، ولكنّ نفيه قدرته على استشارة علماء الأرثوذكسية في سوريا وفلسطين ومصر يدفعنا إلى الظنّ بأنّ بعض من استشارهم كانوا من غير الأرثوذكس، ولعلّهم كانوا إنجيليين وكاثوليك من المدرّسين والعاملين في مدارس اللاهوت البروتستانتية والكاثوليكية في ذلك الوقت.

إذا تمعنّا في طريقة عمل صرّوف نجد أنّها تعكس تمامًا ما ذكره في المقدّمة، فلم يكن بمترجمٍ فعليّ بل عمل كمصحّح ومنقّحٍ للنصّ. لذلك تراه في معظم الأحيان، وهذا لافت أيضًا، يثبت نصّ الترجمة الإنجيلية مع تعديلاتٍ طفيفة على لغته وسكب جمله واستعمال عباراته. ويختلف عمل صرّوف في كتاب الأناجيل

عن عمله في كتاب الرسائل في مقدار لجوئه إلى الترجمات السابقة. ففي الأناجيل ترى نصوصًا كاملة مثبتة من الترجمة الإنجيلية مع بعض التعديلات الطفيفة، في حين أن الرسائل تنمّ عن عملٍ أكثر إبداعًا. فترى صرّوف يصحّح بقدر أكبر نصوص الرسائل، فيبتعد عن الترجمة الإنجيلية نسبيًا وعن الترجمات الطقسية قيد التصحيح. في حين، وهذا أدهشني فعلاً، حين كنت أعدّ لكتابة هذه الورقة، أنّ ثمّة قربًا لغويًّا ونحويًّا نسبيًّا بين الترجمة الإنجيلية والترجمات الطقسية. هل استعان المترجمون الإنجيليون بالترجمات الليتورجية المعروفة في الكنيسة الأرثوذكسية في ذلك الوقت؟ بناءً على ما استشففته من مقارنتي للنصوص المختلفة، أميل إلى الردّ بالإيجاب. غير أنّ المجال هنا ليس لمناقشة هذا الموضوع بل تأثير الترجمة الإنجيلية على الأرثوذكس.

في هذا الإطار تجدر الإشارة إلى أنّ التصحيح النصّيّ الذي تحدّثنا عنه لم يكن، في رأيي، الأثر الوحيد للترجمة الإنجيلية لنصّ الكتاب المقدّس، فثمّة ما هو أهمّ من هذا وأكثر دلالةً، وهو ما يتعلّق بما أحسّ به الأرثوذكس من ضرورة لإجراء هذا التعديل. تحدّثنا آنفًا عن الضرورة العلمية والأدبية واللغوية. يبقى أن نتحدّث عن ضرورة تتعلّق بالموضوع ذاته، ألا وهو الكتاب المقدّس. يلفتنا أنّ التصحيح اللغويّ الوحيد الذي أجراه الأرثوذكس في تلك الفترة هو على كتابَي الأناجيل والرسائل الطقسيَين. وبقيت الكتب الطقسية الأخرى، كالمعزّي، والتريوديون، والبنديكوستاري، والميناون وغيرها على ما كانت عليه، ولم يصحّح إلاّ بعضها كالميناون بعد فترة طويلة، ودونما علاقة جوهرية بما نحن في صدد الكلام عليه. أوّل تصحيح على نصّ الأناجيل والرسائل الطقسية حصل سنة ١٨٦٥، وذلك على النسخة الشويرية التي كانت رائجة آنذاك. ولم يكن التصحيح شاملاً بل جزئيًّا وناقصًا. ثم كان التصحيح الأهمّ سنة ١٩٠٣ على يد وهبة الله صرّوف. السؤال الذي يطرح نفسه في هذه المرحلة هو لماذا أحسّ الأرثوذكس بضرورة الاهتمام بوضوح النصّ الكتابيّ وفصاحته بعد سنة ١٨٦٥؟

لعلّ الجواب على هذا السؤال في المكانة التي يحتلّها الكتاب في التقليد الإنجيليّ، ولا شكّ أنّ هذه المكانة هي التي شكّلت الدافع الأساسيّ لترجمته على يد سميث وفان دَايْك إلى لغة عربية فصحى واضحة وخالية من الشوائب إلى حدّ بعيد. هذا الأمر جعل الأرثوذكس، في رأيي، يعيدون اكتشاف أهمّية الكتاب المقدّس في الليتورجيا، ويعون ضرورة تقديمه إلى القارئ الأرثوذكسيّ العربيّ المتطلّب علميًّا في تلك الفترة بشكل قريب إلى ذهنيته التي كانت قد بدأت تتأثّر بالمؤسسات العلمية الأميركية وغيرها. وليس من المستبعد أن يكون الدكتور فان دَايْك قد تحدّث في هذا الموضوع في أروقة مستشفى الروم لمّا كان طبيبًا هناك، أو أن يكون وهبة الله صرّوف تطرّق إلى مكانة الكتاب مع بعض اللاهوتيين من غير الأرثوذكس مّمن كانوا في مدينة بيروت في أيامه. لا أعتقد أنّ الأرثوذكس، بشكل عام، أخذوا موقفًا دفاعيًّا في ذلك الوقت إزاء الترجمة، فالكتاب حاضرٌ بشكل قويّ في ليتورجيتهم ونصوصهم المتداولة والمعروفة، وما كان عليهم إلا السير في ركاب العصر محدّثين في اللغة والأسلوب.

ثمّة أيضًا أثر بالغ الأهميّة في نظري، ولذا أبقيت الكلام عليه إلى النهاية ليتسنّى لي تبيانه والتشديد عليه. هذا الأثر متعلّق بالكتاب المقدّس ككتابٍ كامل غير مجزّأ لضرورات القراءة الليتورجيّة. قبل الترجمة الإنجيليّة لم يعرف الأرثوذكس في تاريخهم الحديث ترجمة كاملة لنصّ الكتاب المقدّس بالعربية. وكان الوصول الوحيد لهم إليهم عن طريق سماع القراءات في الخدم والقداديس. لوحدة الكتاب المقدّس وتمامه والنظرة إليه ككتاب واحد موحّد أهمّية بالغة في التقليد المسيحيّ منذ البدايات. نلاحظه أوّلاً في تشديد كتّاب العهد الجديد على ما لكتاباتهم من جذور في العهد القديم توحي بأنّ الخلاص الذي تمّ في يسوع المسيح الذي يكتبون عنه إنّما هو الخلاص الموعود به في العهد القديم. ثم نراه عند آباء القرون الأولى في رفضهم للماركيونية والمحاولات الشبيهة بها. يشهد التقليد النصّيّ للكتاب المقدّس على انتشار

استعماله في الكنيسة الأرثوذكسيّة في مناطق عدّة، وهذا طبعًا من النوافل. غير أنّ الأمر المستغرب أنّ الكنيسة الناطقة بالعربيّة لم تعرف كتابًا مقدّسًا كاملاً في الفترة العثمانيّة. هل يمكننا تفسير هذا بانكفاء الأرثوذكس، وخصوصًا الناطقين منهم بالعربية في تلك الفترة إلى الليتورجيا، علمًا أن الكتاب المقدّس كاملاً ليس كتابًا ليتورجيًّا، بل يستعاض عنه بتوزيعه قراءات على مدار السنة؟ لعلّ هذا هو السبب الذي نتج عنه فقدان أهمّيّة الكتاب في الممارسة الأرثوذكسيّة. والحال هذه، كان على الأرثوذكس أن ينتظروا ظهور ترجمة إنجيليّة كاملة حتى يعوا أهمّيّة «الكتاب». حتى وهبة الله صرّوف نفسه يعلن في مقدّمته المذكورة عزمه على «طبع العهد الجديد كاملاً في طبعة منقّحة». غير أنّ هذا لا يحصل أبدًا، كما لم تنجح أيّة محاولة أخرى.

غير أنّ هذا لم يمنع الترجمة الإنجيلية من الانتشار لدى القرّاء الأرثوذكسيين الذين اعتبروها النصّ المقبول للكتاب المقدّس (textus receptus). وكانت هذه الترجمة باعثًا لهم لاكتشاف الكتاب وقراءته قراءة واحدة متواصلة. حين كنت طفلاً، بُعِثَ إليّ بمجلّد أحمر غليظ، ذي أحرف كانت ترهقني لا بل تكربني قراءتها، حتى أنّني، وأنا بعد بُعَيْدَ العاشرة من عمري، كنت أتمنّى أن أبلغ من العمر سريعًا ما يمكنّني من قراءة ما لم أكُ أستطيع قراءته. غير أنّي كنت أكنّ لهذا الكتاب احترامًا كبيرًا، وأشعر بالرهبة أمامه لما كنت أسمع عنه من أهلي من أنّه كتاب الله، والتوراة، والكتاب المقدّس، وأهمّ جميع الكتب، وما إلى ذلك... فكنت أحتفظ به مغلقًا إلى جانب سريري، وأستعيض عن قراءته ببعض كتب الصلوات والروايات قبل النوم. وبعد سنين اكتشفت ما كان جدّي كتبه على أوّل صفحاته: «وصلت إلينا هذه الآيات المقدّسة مجتمعة في الكتاب المقدّس العهد القديم والجديد مشوهدة، وذلك في يوم كذا وكذا...». وبعدما درست اللاهوت، وتخصّصت في الكتاب، صارت هذه الجملة تدهشني لما تحمله من مضامين تتعلّق بفهم الكتاب، وهي التشديد على قدسيّته، ووحدته، وعلاقاته بما

فيها من اتصال وتكامل. وازدادت دهشتي لأنّ كاتبها إنسان بسيط لم يتعلّم في شبابه إلاّ القراءة. ألعّله اكتشف ما كتبه بعد قراءةٍ؟ ربما.

الأهمّ أنّ هذا المجلّد الأحمر الغليظ كان الترجمة الإنجيلية للكتاب، عرفتها ولا أزال، وهي رفيقتي في أبحاثي، ليس بسبب من عاطفة أو ذكريات، بل لأنّني وجدت فيها أمانةً للنصّ تكاد أن تكون تامّة. في مشواري العلميّ الذي بدأ منذ زمنٍ يسير مع كتاب الله العزيز لا أريد أن أخفي عليكم بما أشعر به من أرثوذكسيتها. وشكرًا.